العقل فى القرآن والسنة

أ . د سالم عبد الجليل
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
مصر

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله ومن والاه، وبعد،،،

فلا يخفى على عاقل أن للعقل فى الإسلام مكانة كبيرة، أولى دلالاتها وروده فى القرآن الكريم فى آيات ومواضع عديدة، ولا يوجد دين غير الإسلام كرم العقل والفكر وأشاد بأولى الألباب والنهى ، ودعا إلى النظر والتفكر، وحرض على التعقل والتدبر، وقرأ الناس فى كتابه ﴿ **أَفَلَا تَعۡقِلُونَ** ﴾ (البقرة:٤٤)، و ﴿ **أَفَلَا يَنظُرُونَ** ﴾ (الغاشية:١٧)، و ﴿ **لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ** ﴾ (البقرة:٧٣)، و﴿ **لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (البقرة:٢١٩)، و﴿ **أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ** ﴾ (الأعراف:١٨٥)، و﴿ **أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ** ﴾ (الروم:٨)، و﴿ **لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ** ﴾ (البقرة:١٦٤)، و﴿ **ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (يونس:٢٤).

ومن أروع ما جاء فى القرآن قوله: ﴿ **قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ** ﴾ (سبأ: ٤٦). ومعناه: أنه لا يطلب منهم إلا خصلة واحدة، وهى أن يتوجهوا بعقولهم إلى الله الذى يؤمنون به، وبخالقتيه للكون وتدبيره لأمره، مخلصين فى طلب الهداية إلى الحقيقة، بعيدًا عن تأثير " العقل الجمعى "، وعن الخوف من الناس أو المجاملة لهم، كل فرد مع صديقه ممن يثق به، ويطمئن إليه، أو يفكر وحده، وهو معنى قوله: (مثنى وفرادى)، ثم يتفكروا فى أمر النبوة، وسيهديهم فكرهم الحر إلى الحق .

إن العقل هو أجل نعمة تميز بها الإنسان عن سائر الكائنات ووجهها القرآن إلى استعماله كآلة للتفكّر والتدبر فى كتاب الله وفى مخلوقاته وفى تشريعاته.

وفى هذا البحث سوف أتناول الموضوع فى النقاط التالية:

١- تعريف.
٢ - الألفاظ المرادفة للعقل ومعانيها.
٣- التفاوت فى العقول.
٤ - مكان العقل.
٥- العقل فى القرآن الكريم.
٦- العقل فى الحديث النبوى.
٧- مظاهر تكريم الإسلام للعقل.
٨- العقل مناط التكليف.
٩- العقل والوحى طريقهما واحد.

العقل فى القرآن والسنة

١- تعريف العقل:

العقل لغة: مصدر عقل، يعقل، عقلاً، فهو معقول، وعاقل.

وأصل معنى العقل المنع، يقال: عقل الدواء بطنه، أى أمسكه. وضد الحمق ، والجمع عقول ؛ قال ابن الأنبارى: رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه. وقيل: العاقل الذى يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذ من قوله قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام. والعقل التثبت فى الأمور. والعقل القلب. والقلب العقل. وسمى العقل عقلاً لأنه يعقل ــ أى يمنع ــ صاحبه عن التورط فى المهالك ؛ وقيل: العقل هو التمييز الذى به يتميز الإنسان من سائر الحيوان(١).

وأما فى الاصطلاح:

نظرًا لأن العقل اسم مشترك، فقد اختلف فى حده، كما يقول الإمام الغزالى فى الإحياء علوم الدين: " اعلم أن الناس اختلفوا فى حد العقل وحقيقته وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة، فصار ذلك سبب اختلافهم.

والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل: اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان ، كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدة، وما يجرى هذا المجرى، فلا ينبغى أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه.

فالأول: الوصف الذى يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذى استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذى أراده الحارث بن أسد المحاسبى حيث قال فى حد العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف فى القلب به يستعد لإدراك الأشياء. ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم. وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية، فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات

للعلوم النظرية، ولو جاز أن يسوى بين الإنسان والحمار فى الغريزة والإدراكات الحسية. لجاز أن يسوى بين الحمار والجماد فى الحياة.

الثانى: هى العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد، وهو الذى عناه بعض المتكلمين حيث قال فى حد العقل: إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وهو أيضاً صحيح فى نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهر وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال، فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل فى العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبى جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً.

الرابع: أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التى بها يتميز عن سائر الحيوان.

فالأول: هو الأس والمنبع.

والثاني: هو الفرع الأقرب إليه.

والثالث: فرع الأول والثانى ؛ إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب.

والرابع: هو الثمرة الأخيرة وهى الغاية القصوى، فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب. ولذلك قال على كرم الله وجهه: رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع "(٢).

وعرَّفه السرخسى الحنفى رحمه الله تعالى بقوله:

(العقل نور فى الصدر به يبصر القلب عند النظر فى الحجج بمنزلة السراج، فإنه نور تبصر العين به عند النظر فترى ما يدرك بالحواس) (٣).

٢- الألفاظ المرادفة للعقل ومعانيها:

أ) **الحِجَى:** العقل والفِطْنة، والجمع أَحْجاءٌ، وفلان لا يَحْجُو السِّرَّ أَى لا يحفظه، ويقال للراعى إذا ضيع غنمه فتفرَّقت ما يَحْجُو فلانٌ غَنَمه ولا إِبِلَه، وسِقاء لا يَحْجُو الماءَ لا يمسكه، ورَاعٍ لا يَحْجُو إِبله أَى لا يحفظها، ويروى بكسر الحاء وفتحها (٤).

ب) **الحِجْر**: وأصل الحجر: المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنه لذو حجر، ومنه سمى الحجر لامتناعه بصلابته، ومنه حجر الحاكم على فلان أى منعه وضبطه عن التصرف ولذلك سميت الحجرة حجرة لامتناع ما فيها بها ؛ قال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر: إذا كان قاهرا لنفسه ضابطًا لها [٥].

ج) **النُّهى**: جمع مفرده نهية قال لهم ذلك لأنهم الذين ينتهى إلى رأيهم وقيل: لأنهم ينهون النفس عن القبائح [٦].

د) **اللب**: وجمعه ألباب، ولب كل شيء: خالصه ولذلك قيل للعقل: لب[٧].

٣- التفاوت فى العقول:

عرف الباجى العقل بأنه: " العلم الضروري، الذى يقع ابتداء ويعم العقلاء " ويلزم منه أن يكون الناس فى عقولهم سواء، وهو مذهب المعتزلة، والأشاعرة، ووافقهم ابن عقيل من الحنابلة، وهو ما ذهب إليه الفلاسفة[٨]، وعلى رأسهم ديكارت القائل بأن: " العقل هو أحسن الأشياء توزعاً بين الناس بالتساوي.." إلى أن قال: " إن اختلاف آرائنا لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر.. "[٩].

وحجة المتكلمين – فى عدم – تفاوت العقول واختلافها – هى أن العقل حجة عامة، يرجع إليها الناس عند اختلافهم، ولو تفاوتت العقول لما حصل ذلك، وهذا مبنى على مذهبهم فى تعريف العقل، بأنه: بعض العلوم الضرورية والتى لا يختلف الناس عليها، والصواب ما تقدم، وهو أن مسمى العقل يشمل العلوم الضرورية، والنظرية، فالتحاكم إلى العلوم الضرورية يمنع النزاع والاختلاف، والتحاكم إلى العلوم النظرية يحتمل النزاع والاختلاف، وهذا مشهور بين الناس ولا سيما المشتغلين بالعلوم العقلية من الفلاسفة والمتكلمين ؛ حيث يكثر بينهم التنازع والاختلاف.

والحق أن يقال: إن العقول تتفاوت من شخص إلى شخص، بل قد يحصل هذا التفاوت فى الشخص الواحد، كما قال الشاطبى رحمه الله: " فالإنسان – وإن زعم فى الأمر أنه أدركه، وقتله علماً – لا يأتى عليه الزمان، إلا وقد عقل فيه ما لم يكن عقل، وأدرك من علمه ما لم يكن أدرك قبل ذلك، كل أحد يشاهد ذلك من نفسه عيانا، ولا يختص ذلك عنده بمعلوم دون معلوم. [١٠] وحديث: **[.. ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن]**[١١] مما يمكن الاستدلال به على هذا التفاوت، إذ الحديث دل بمنطوقه على النقصان، وبمفهومه على الزيادة وهو معنى التفاوت، بل هو دليل على تفاوت العقل الغريزى أيضاً لأن الرسول ﷺ قرر أن جنس النساء فيه نقصان العقل، وهذا لا يكون إلا فى الغريزة التى خلقن بها، ولأن التفاوت فى الجانب الكسبى فرع عن التفاوت فى

الجانب الغريزي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " الصحيح الذى عليه جماهير أهل السنة، وهو ظاهر مذهب أحمد، وأصح الروايتين عنه، وقول أكثر أصحابه، أن العلم والعقل ونحوهما يقبل الزيادة والنقصان "[١٢] .

٤- مكان العقل:

اختلف أهل العلم فى مكان العقل من جسم الإنسان، فقالت الأحناف والحنابلة وهو مذهب المعتزلة: إن العقل محله الدماغ، أى الرأس، ودليلهم: أنه إذا ضرب الرأس ضربة قوية زلزل معها العقل، وقالوا – أيضاً –: إن العرب تقول للعاقل، وافر الدماغ، ولضعيف العقل، خفيف الدماغ، وهو محل الإحساس.

وقالت المالكية والشافعية: محله القلب، وعليه بعض الحنابلة، ونسب إلى الأطباء[١٣]، وصححه الباجى ودليلهم قوله تعالى:﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (الحج:٤٦) ، فأضاف منفعة كل عضو إليه ؛ فمنفعة القلب التعقل كما أن منفعة الأذن السمع ؛ وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ فى ابن عباس رضى الله عنهما: "ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سؤولاً، وقلباً عقولاً"[١٤].

والتحقيق كما يرى الإمام ابن تيمية: أن العقل له تعلق بالدماغ والقلب معاً، حيث يكون مبدأ الفكر والنظر فى الدماغ، ومبدأ الإرادة والقصد فى القلب، فالمريد لا يكون مريداً إلا بعد تصور المراد، والتصور محله الدماغ[١٥]، ولهذا فالهداية موطنها القلب، والفكر موطنه الدماغ.

٥- العقل فى القرآن الكريم:

ليس لاسم العقل وجود فى كتاب الله العزيز وإنما يوجد ما تصرف منه نحو:

عقلوه: وردت فى موضع واحد من القرآن.

تعقلون: وردت فى أربعة وعشرين موضعاً من القرآن.

نعقل: وردت فى موضع واحد من القرآن.

يعقلها: وردت فى موضع واحد من القرآن.

يعقلون: وردت فى اثنين وعشرين موضعاً من القرآن[١٦].

٦- العقل فى الحديث النبوي:

ورد لفظ العقل فى كلام النبى ﷺ فى حديث صحيح عن أبى سعيد الخدرى قال: خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: **[يا معشر النساء تصدقن فإنى أريتكن أكثر أهل النار]** فقلنا: وبم يا رسول الله ؟ قال: **[تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت**

من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن]. قلنا: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ فقال: **[أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟]** قلنا: بلى. قال: **[هذا من نقصان عقلها]**. قال: **[وإذا حاضت لم تصل ولم تصم]**. قلنا: بلى. قال: **[فهذا من نقصان دينها]**(١٧).

وبالنظر فى الأحاديث الوارد فيها ذكر (العقل) نجدها ثلاثة أنواع:

قسم ورد فيه العقل بمعنى الدية وهذا لا يدخل فى بحثنا.

قسم ورد فيه لفظ العقل بصيغة الفعل ومثال ذلك ما رواه على بن أبى طالب ﷺ أن النبى ـ ﷺ ـ قال: رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ وعن المعتوه ـ أو قال المجنون ـ حتى يعقل وعن الصغير حتى يشب (١٨).

قسم ورد فيه لفظ العقل بصيغة المصدر وهو المقصود هنا كما فى حديث أبى سعيد السابق.

٧- مظاهر تكريم الإسلام للعقل:

ومظاهر التكريم عديدة من أهمها شيئان:

الأول: **اشتراط ثبوت الإيمان بالاقتناع العقليّ** :

ولهذا قيل العقائد تعرض ولا تفرض، لأن الأصل أن يكون الإيمان عن اقتناع، والاقتناع يعنى استعمال العقل، وترك للإنسان الخيار المطلق بين الإيمان أو الكفر احترامًا لعقله " قال تعالى: ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ** ﴾ (البقرة:٢٥٦)، وقال تعالى:﴿ **وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ** ﴾ (الكهف:٢٩). وفى المقابل لم يقبل الإيمان القائم على مجرد التقليد، بل لابد من معرفة الأدلة وعرضها على العقل،"ولا يقبل التقليد فى الاعتقاد خاصة فيما يُشْتَرَطُ لصحة الإسلام والإيمان ؛ بل لابُدَّ فيه من أخذ القول بدليله وجوباً ؛ لأنَّ هذا هو العلم الذى أمر الله عز وجل به فى قوله ﴿ **فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ** ﴾(١٩).

وقد حذر القرآن من التّقليد الأعمى والتعصب الأصم الذى يقود إلى الإيمان بالخرافات والأهواء لمجرد أن السابقين من الآباء قد قالوا بها، قال تعالى﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ** ﴾(البقرة: ١٧٠) فلا يجوز للإنسان أن يطفئ مصباحَ عقلِه، بل يجب عليه إعمال ذهنه وأن يتفكر ويتدبر فى الكتاب المسطور ـ كتاب الله ـ والكتاب المنظور ـ الكون من حوله.

فأما التفكر والتدبر فى كتاب الله فدل عليه قوله تعالى: ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ**

ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (ص:٢٩) ، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾(محمد: ٢٤) ، وقد سبق القول بأن عبارة.. لعلكم تعقلون" وردت فى القرآن الكريم خمس مرات، ووردت "أفلا تعقلون..." اثنتى عشرة مرة، ووردت "..لقوم يعقلون" سبع مرات، ووردت عبارة "... لعلكم تتفكرون" مرتين و"..لعلهم يتفكرون" ثلاث مرات و "لقوم يتفكرون...." سبع مرات.

وأما التفكر فى الكتاب المنظور فدل عليه قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران:١٩١)

ولم يقف توجيه القرآن للتفكر عند الكتاب المسطور والكتاب المنظور فحسب بل جاءت التشريعات معللة بما يعنى أنها تخاطب العقل، قال تعالى:﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٩) ، وقوله تعالى:﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة ١٨٤). فأمر بالتفكر فى تلك التشريعات لِتحرى الحكمَة فيها، لأن الإنسان عندما يكون مدركاً للحكمة الكامنة وراء التّشريع وفاهماً لترابط التّشريعات فى مجموعها فسوف يتمكن من تطبيقها عن قناعة ويقوم بتنفيذها عن حب، وعندئذ ستؤتى ثمارها.

ولم يكتف الإسلام بتعليل الأحكام وهو ما يعنى إعمال العقل لمعرفة الحكمة منها وهو ما درجنا على تعلمه منذ الصغر تحت عنوان حكمة المشروعية، بل أطلق للعقل العنان ــ لمن توفرت له شروط الاجتهاد ــ لاستنباط الأحكام فيما لا يوجد فيه نص من كتاب أو سنة أو إجماع وهو الأمر الذى يقوم مداره على العقل وفى ذلك ورد عن عمرو بن العاص: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**][٢٠]، فجعل من اجتهاد العقلِ أساساً للحُكم ــ لمن هو أهلُه ــ عند فقدان النص .

الثاني: حرم الاعتداء على العقل بكل أشكال الاعتداء:

– فحرم على المسلم شراب المسكر والمفتر وكل ما يخامر العقل ويفسده، قال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (المائدة:٩٠) ، وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت: [نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كُلِّ

مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ][٢١].

وجعل الإسلام الدية كاملة فى الاعتداء على العقل وتضييع منفعته بضرب ونحوه، وهذا محل إجماع،كما قال ابن الجوزى: وأجمعوا أن فى العقل دية "[٢٢].

شدد الإسلام فى النهى عن اعتقاد ما ينكره العقل السليم، كالتطير والتشاؤم بشـــهر صَــفَر، واعتقاد التأثير فى العدوى والأنواء، وحرم إتيان الكهان وغيرهم من أدعياء علم الغيب، كما حـــرم التمائم، فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **[لا عدوى ولا طيرة]** [٢٣]. وفى روايـــة عن جابر ﷺ : **[لا عدوى ولا غول ولا صفر]**[٢٤] ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قـــال: قـــال رسول الله ﷺ: **[مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنْ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ]**[٢٥]. وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: **[سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ]** [٢٦].

وفى مقابل هذا أمرنا الإسلام أن نأخذ بالأسباب وأن نتوكل على خالق الأسباب، كما قال ﷺ: **[الْمُؤْمِنُ الْقَوِى خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ]**[٢٧].

٨- العقل مناط التكليف:

إن العقل شرط أساسى فى التكليف، ومحور الثواب والعقاب، ومن أهم شروط وجوب العبادة العقل، والذى يعبر عنه بصريح العبارة (العقل) فى مقابل الجنون ويعبر عنه كذلك بالبلوغ حيث يكتمل العقل، فى مقابل الصغر حيث يكون العقل غير مكتمل النضج، وقد ورد عن على بن أبـــى طالب ﷺ أن النبى ﷺ قال: **[رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعـــن المعتـــوه ــ أو قال المجنون ــ حتى يعقل، وعن الصغير حتى يشب]**[٢٨]. والقاسم المشترك بين الثلاثة، هو غياب العقل، فى وقت النوم، أو بسبب الجنون، أو بسبب الصغر.

والقرآن يطالب كل صاحب دعوى بإقامة الحجة والبرهان على صدق دعواه، وإلا رفضت ونجد هذا فى محاورته للمشركين: ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (النمل:٦٤) ، ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ (الأنبياء:٢٤).

وكذلك مع أهل الكتاب: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:١١١). والبرهان والحجة يعنيان استعمال العقل لإثبات الأمر أو نفيه.

ويحرم على المسلم أن يعطل الأدوات التى وهبه الله إياها لتحصيل المعرفة الصحيحة، وهي: السمع والبصر والفؤاد (العقل)، قال تعالى:﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ (الإسراء:٣٦) ، وتعطيل العقل ينزل بالإنسان من أفق الإنسانية العاقلة إلى حضيض البهيمية، بل يجعل الإنسان أضل سبيلاً من الأنعام ؛ لأنها لم تؤت ما أوتى من قوى التمييز والإدراك، ولذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩).

٩- العقل والوحى طريقهما واحد:

يعتقد البعض أن طريق الوحى يتعارض مع طريق العقل، والحق أنهما يوصلان إلى طريق واحد وهو معرفة الله تعالى والإقرار بوحدانيته، وهو ما يثبت بالعقل، وهذا ما يؤكده قول الله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (المؤمنون:٩١-٩٢) ثم يأتى دور الوحى لنتعرف من خلاله على ما يجب لله وما يستحيل فى حقه وما يرضيه وما يسخطه، وكيف نعبده...إلخ فهما متكاملان، لا متضادان.

ومن قديم وجدنا تفسيرًا للوحى (القرآن الكريم) بالمعقول فى مقابل التفسير بالمنقول، ومثال الأول: تفسير الإمام الزمخشرى المعروف بالكشاف ومثال الثاني: تفسير ابن جرير الطبرى وتفسير الإمام ابن كثير وكلاهما قد اعتمدا على الرواية. ومنهم من جمع بينهما كتفسير الإمام الشوكانى المسمى فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير.

وفى علم الفقه، يعتبر العقل أساس التكليف كما سبق، فلا يجوز تكليف الصبى أو المجنون. والعاقل هو المخاطب بالأمر. وحكمة العبادات تدرك بالعقل. بل وحكمها يختلف باختلاف فهم الدليل أى لابد من تدخل العقل. ولذلك أتت المذاهب الفقهية المختلفة تعبيراً عن بنية العقل بأبعاده المختلفة. إذ تقوم الحنفية على العقل النظري، والمالكية على العقل المصلحى، والشافعية على الجمع بين العقل والمصلحة، والحنبلية على العقل النصى الذى يلتزم بالنص كأمان من الهوى.

لقد ازدهرت فى الحضارة الإسلامية العلوم الرياضية والطبيعية. واكتشف المسلمون الجبر، وحساب اللامتناهى. وعرف المسلمون حساب الهند، وهندسة اليونان، وشرحوهما ثم أبدعوا فيهما،

ونقل الغرب عنهم فى العصر الوسيط. وأصبحت الرياضيات والعلوم الطبيعية إحدى المراحل المهمة فى تاريخ العلم.

والعقل مشترك إنسانى عام يتجلى فى كل حضارة وتتقدم أو تتأخر الحضارات بقدر استعمال أهله للعقل والإبداع فيه، وتميزت الحضارة الإسلامية بأنها أضافت إلى العقل الروح التى صبغت بالتعاليم الإسلامية والأخلاق النبوية ومزجت بين الروح والمادة وبين إعمار الدنيا والآخرة حيث اعتبرت إعمار الدنيا طريقًا لإعمار الآخرة حسب استعماله.

الهوامش:

١) انظر: لسان العرب ٤٥٨/١١ وما بعدها مادة: عقل، والقاموس المحيط وما بعدها مادة: عقل.
٢) انظر: إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى ج١ / ص٩١.
٣) أصول السرخسى – ١ / ٣٤٧.
٤) لسان العرب – (١٤ / ١٦٥)..
٥) تفسير القرطبى – (٢٠ / ٤١).
٦) تفسير القرطبى – (١١ / ١٩٠).
٧) فتح القدير – (١ / ٣٠٦)، تفسير القرطبى – (٢ / ٤٠١).
٨) انظر: شرح الكوكب المنير لأبى البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحى ص: ٢٥.
٩) مقال عن المنهج – رينيه ديكارت – ترجمة: محمود محمد الخضيرى ص: ٣-٤.
١٠) انظر: الاعتصام ٣٢٢/٢.
١١) صحيح البخارى ٤٠٥/١.
١٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧٢١/١٠-٧٢٢...
١٣) انظر: شرح الكوكب المنير ص ٢٤.
١٤) المستدرك – (٣ / ٦٢١).
١٥) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٠٤/٩.
١٦) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة: عقل .
١٧) متفق عليه.
١٨) أخرجه أحمد بن حنبل فى المسند (١ / ١١٦) بسند صحيح وكذا أصحاب السنن الأربعة.
١٩) شرح العقيدة الطحاوية – صالح آل الشيخ – (١ / ٤٨٨)، والآية من سورة محمد، رقم:١٩.
٢٠) متفق عليه.
٢١) رواه أبو داود، وصححه الحافظ العراقي.
٢٢) الإجماع لابن المنذر – ١ / ٤٣.
٢٣) رواه البخاري.
٢٤) رواه مسلم، والغول: جنس من الجن والشياطين، كانت العرب تزعم أنه يتراءى للناس.
٢٥) رواه أبو داود وابن ماجه، وصححه الحافظ العراقي، والنووي، والمراد: النهى عن اعتقاد أن للنجوم تأثيراً على البشر وأنها فاعلة ومؤثرة على مجريات حياتهم.
٢٦) رواه أبوداود، وصححه السيوطى والألباني، والتولة: نوع من السحر يحبب المرأة إلى زوجها، جعله من الشرك لاعتقادهم أن ذلك يفعل خلاف ما قدر الله.
٢٧) رواه مسلم.
٢٨) مسند أحمد بن حنبل – (١ / ١١٨) بسند صحيح.

المراجع:

١- القرآن الكريم.
٢- كتب السنة:
٣- صحيح البخارى
٤- صحيح مسلم.
٥- مسند أحمد.
٦- سنن أبى داود.
٧- سنن النسائي.
٨- سنن الترمذي.
٩- سنن ابن ماجه.
١٠- المستدرك للحاكم.
١١- إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالي.
١٢- أصول السرخسي.
١٣- الإجماع لابن المنذر.
١٤- الاعتصام للشاطبي.
١٥- القاموس المحيط
١٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.
١٧- تفسير القرطبي.
١٨- شرح العقيدة الطحاوية - صالح آل الشيخ.
١٩- شرح الكوكب المنير لأبى البقاء.
٢٠- شرح العقيدة الطحاوية - صالح آل الشيخ
٢١- لسان العرب.
٢٢- مجموع فتاوى ابن تيمية.